

قَطْرِي بنُ الفُجاءة : الفارس الشاعر

هزاع بن عيد الشمري *

شريف سيد ، وفارس شجاع مقدم ، وخطيب بليغ ، وشاعر حماسي مفلق ، تميمي ، مازني ، من ذوي النجدة والمروءة ، أهل القرن الهجري الأول . عابه خروجه على سلطان المسلمين وجماعتهم ، وعنجهيته البدوية الصلفة ، وقاده خروجه إلى محاربة السلطان ومقارعة جنوده ؛ و - إن صح - تقتيله أطفال ونساء الجماعة وسببه للمال والذرية ، على أن خطبه ورسائله تنم عن تقى وصلاح دين .

كان قطري من فرسان الأزارقة الشراة وشجعانهم ، اشترك في حروبهم وأيامهم حين شهرُوا السيف على مصعب بن الزبير بالعراق ، وخرجوا عن طاعته في خلافة عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ، وحينما توفي زعيمهم سنة ٦٨ بايعه الأزارقة أميراً عليهم ، فسلموا عليه بالخلافة ، ودعوه أمير المؤمنين ، حتى مقتله سنة ٧٧ أو ٧٨ أو ٧٩ على أقوال ، ولشجاعته ورسالته في المعارك سموه أمير الموت ^(١) .

قاد قطري بن الفجاءة فرسان الأزارقة بدءاً من إمارته عليهم ، وواجه بهم

(١) الخوارج في العصر الأموي ص ٢١٦ .

* باحث في الدراسات التاريخية والعربية ، وله عدد من الكتب التاريخية والأدبية .

قواد الزبيرين أمثال الصناديد: عمر بن عبيدالله بن معمر التيمي، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي؛ وأبنائه: المفضل، والمغيرة، ويزيد، ومدرک، وعتّاب بن ورقاء الرياحي التيمي، وعبدالرحمن بن مخنف سيد الأزد بالعراق، وعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي وغيرهم، فاستطاع هؤلاء القواد تنحيته شرقاً عن البصرة والكوفة بعد كرّ وفرّ - جماعات ووحداً - . وحينما انشغل مصعب ابن الزبير بأهل الشام حين نشوء الخلافة المروانية، واستعدادها لاسترداد العراق ، وكّل الأمر إلى المهلب لمحاربة الأزارقة الذين اشتدت شوكتهم، فأصبحوا على مشارف البصرة، وهددوا بسقوطها، فحث المهلب الناس للدفاع عنها، فتجمع أهل البصرة وقادهم المهلب في مواجهة خطر ابن الفجاءة وفرسانه، وبعد عناء من الحرب الطويلة المضنية، استطاع المهلب إزاحة قطري والأزارقة عن ضواحي المدينة إلى أصفهان، وفي أرضها وأرض الأهواز وكرمان أقام قطري بن الفجاءة دولة وجبى الأموال، فاجتمعت إليه جموع كبيرة، فقوي أمره، وصار يتطلع إلى الاستيلاء على البصرة، وأخذ المهلب في مطاولته لكبح جماحه، وصار المهلب ي كاتب أهل أصطخر والقرى المجاورة لها سراً، فعلم قطري فهجم على أصطخر وهدمها على أهلها، وأراد مثل ذلك بمدينة قسا فاشتراها منه أذا مَرْد بن الهرّيد بمئة ألف درهم فلم يهدمها ^(١)، ولما تولى بشر بن مروان ولاية العراق من قبل أخيه عبدالملك - أمير المؤمنين -، تولى محاربة الأزارقة عدد من قواد الأمويين فانهمز بعضهم، وقتل بعض، فجاشت فرسان الأزارقة حتى أصبحوا على مشارف

(١) الكامل ج ٢، ص ٢٨٣ .

الكوفة والبصرة مما حير عبد الملك، فولى المهلب محاربتهم مرة أخرى ، وكان بشر عزله عن ذلك ، فدافعهم المهلب عن العراق سنة ٧٤هـ، ولكنه لم يستطع إنجاز هزيمتهم حتى ولي الحجاج بن يوسف العراق بسبب ذلك، فصار يمد المهلب بالمال والسلاح والرجال، ويتابع حثه وتوجيهه، فواجههم المهلب في معركة شديدة سنة ٧٥هـ، قُتل فيها ساعده الأمير عبدالرحمن بن مخنف الأزدي، وكادوا المهلب نفسه فشد وحزم أمره وعزم على مناجزتهم، فلاقاهم في وقائع كبيرة، والحجاج يمه بالرجال والسلاح، حتى أزاخم إلى طبرستان بعد وقعة البُستان من أرض كرمان ، ثم أوقع بهم في معركة يوم سابور، وهي الوقعة التي وصفها كعب الأشقري ، من جماعة المهلب ، بقوله من قصيدة طويلة :

حتى اجتمعنا بسابور الجنود وقد شُبَّتْ لَنَا وَلَهُمْ نَارُ لَهَا شَرُّ
نَلْقَى مَسَاعِيرَ أَبْطَالاً كَانَهُمْ جُنٌّ نَقَارَعُهُمْ مَا مَثَلُهُمْ بِشَرِّ
نُسْقَى وَنُسْقِيهِمْ سَمًّا عَلَى حَقِّ مُسْتَأْنَفِي اللَّيْلِ حَتَّى أَسْفَرَ السَّحَرُ

ثم عاد المهلب إلى العراق وولي ولاية . أما الأزارقة فبعد هزيمتهم دب الخلاف بينهم، وانقسموا على قطري حتى ضعف أمره، وانتهى بمقتله في معركة بينه وبين جيش أموي يقوده القائد الفذ الشهير سفيان بن الأبرد الكلبي، وكان ذلك سنة ٧٧هـ أو ٧٨هـ كما في الطبري أو سنة ٧٩هـ كما في تاج العروس . وكان المتولي قتله سورة بن أبجر البارقى ^(١) ، أو هو سورة بن الجبر الدارمي ، من بني أبان بن دارم ^(٢) .

(١) المعارف ، ص ٤١١ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

قال الجاحظ : كان يدين (قطري بن الفجاءة) بالاستعراض ، والسبأ ، وقتل الأطفال ^(١) .

قلت : وهذا من بدع الأزارقة التي أجمعت عليها الكتب ، إلا أن الملطي صاحب كتاب (التنبيه والرد) يخالف غيره من المؤرخين فيما ذكر من بدعهم ، فيراهم أقل الخوارج شراً ؛ إذ كانوا لا يرون سفك الدماء ولا نهب الأموال ولا سبي الذراري ^(٢) ، وبين يدي من المصادر التي تناولت أقوال وأحاديث قطري مع أصحابه ما يدل على شدته وتسلطه في الرأي ، وصلابته فيما يريد ، مع أنه يتخذ مواقف لينة أحياناً ، ولم يكن مغالياً في أحكامه ، إذ لا يصعب عليه إيجاد ما يبرر إرادته .

وبعد هذه النبذة المقتضبة عن حياة قطري بن الفجاءة ؛ فإن الذي يهم هو إيراد نسبه ، وذكر ثلاث من مواهبه الفذة وصفاته المحمودة ، وهي : الشجاعة ، والخطابة ، وفحولة الشعر .

نسبه : إنه مشهور جداً باسمه ولقب أبيه ، فقليل :

قطري بن الفجاءة ، وهو إشارة إلى زعيم فاعل من زعماء الخوارج ، كان شديد الغلو في الدين ، شديد البأس في المواجهة والبطش ، وهو خطيب مصقع ؛ قليل هم الذين يركّبون الكلام مثل تركيبه وحلاوة سبكه ، وهو شاعر مفلق مجيد . أما تفصيل نسبه فهو عند الكاتبين ما يلي :

- ذكر السرقسطي بأنه : قطري بن جعد المازني ^(٣) ، وذكر ابن منظور أنه :

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الخوارج ، ص ٢٢٦ .

(٣) الأفعال ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

قطري بن فجاءة المازني ^(١) ، وقال ابن عبدريه : قطري بن الفجاءة ، من بني مازن بن عمرو بن تميم ^(٢) وذكره الجاحظ أنه : قطري بن الفجاءة ، أحد بني كنانة بن حُرْقُوص بن مازن ^(٣) .

وقال الزبيدي : قطري بن الفجاءة ، أحد أبطال الخوارج ، شاعر من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، واسم الفجاءة جَعَوْنَة ^(٤) . ويظهر النسب أكثر وضوحاً وأكثر اهتماماً من الإشارات عند ابن حزم ، حيث سلسل نسبه حتى تميم بقوله :

والخارجي الأزرقى الذي سُلم عليه بالخلافة عشرين سنة ، وهو قطري ابن الفجاءة ، والفجاءة لقب لأبيه لأنه غاب إلى اليمن ، ثم أتى قومه فُجاءة ، واسمه جَعَوْنَة بن يزيد بن زياد بن خَنْثَر بن كابية بن حُرْقُوص بن مازن بن مالك (بن عمرو بن تميم) وأخوه جُرْمُوز بن الفجاءة كان على السُّنَّة ، وكان يقاتل أخاه ^(٥) . ولا يختلف الدارقطني في سلسلة نسبه كثيراً عن ابن حزم على أنه يجعل جده الأدنى مازناً ويزيداً هو جده الثاني ، ويذكر خَنْثَر (بالحاء المهملة) بدلاً من خنثر (بالخاء المعجمة) كما وردت عند ابن حزم . ويقول الدارقطني إنه : قطري بن الفجاءة جَعَوْنَة بن مازن بن يزيد بن زياد ابن خنثر بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ^(٦) .

(١) لسان العرب (قطر) .

(٢) العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ .

(٣) البيان ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٤) تاج العروس (قطر) .

(٥) جمهرة أنساب العرب ، ص ٢١٢ .

(٦) المؤتلف والمختلف .

- ويتبين من ذلك أن لفظة قطري هي اسم صريح له، وليس كما يتوهم البعض فجعلوها نسبة لبلدة في السواحل الشرقية من الجزيرة العربية ، وأن الفجاءة هو لقب لأبيه جعونة . ولا يُسَلَّم بصحة اسم جعد كما ورد عند السرقسطي ولكن لا نعلم أهو تصحيف في أصل المخطوطة أم من جراء طبع الكتاب . كما أن الظن وارد في صحة كنانة كما عند الجاحظ بدلاً من كابية كما هي عند ابن حزم والدارقطني .

وزعم بعضهم أن أصل اسم قطري مأخوذ من قَطْرِي النَّعَال^(١)، ولا أرى ذلك مصيباً ؛ بل أراه من قولهم : قطر فلان فلاناً : صَرَعَه صرعة شديدة . فهذا من ضروب الشجاعة . أو هو من قطر الثوب : خاطه . وهنالك مري بن قطري ، تابعي .

- يكنى قطري بن الفجاءة : أبا محمد وأبا نعامة وأبا حنظلة^(٢)، وذكر الجاحظ أنه كانت له كنيستان ، كنية في السلم وهو أبو محمد، وكنية في الحرب وهو أبو نعامة^(٣) . وهذا مشهور متعارف . وأشار ابن قتيبة أنه لا عقب لقطري^(٤) ، بينما أشير إلى أن له حفيدة أصبحت أباضية فيما بعد^(٥) .

ووصفه ابن حبيب أنه من البرص الأشراف^(٦) . وكانت الجماعة ، أهل

(١) لسان العرب (قطر) .

(٢) المعارف ، ص ٦٠٠ .

(٣) البيان ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٤) المعارف ، ص ٤١١ .

(٥) الخوارج ، ص ٢٢٧ .

(٦) المحبر ، ص ٣٠٢ .

السنة يسمونه سيد الكفار، قال رجل من أصحاب المهلب، من عبدالقيس ^(١) :

سائلُ بنا عَمَرَو القَنَا وَجُنُودُهُ وأبا نَعَامَةَ سَيِّدَ الكُفَّارِ

شجاعته : ذكره ابن عبدربه ^(٢) ، أنه أحد فرسان العرب في الإسلام وقرنه

بشجاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والزبير ، وطلحة ، وعبدالله بن خازم السلمي ، وعباد بن الحصين ، وعمير بن الحباب ، والحريش بن هلال السعدي، وشبيب الحروري .

قلت : فأما شجاعة هؤلاء وفروسياتهم فلا شك فيها، وأما قول إنهم

فرسان العرب في الإسلام وحدهم ففيه نظر ؛ وفرسان العرب آنذاك كثر .

وقال عبيدة بن هلال اليشكري في شجاعة قطري : يُطَاعُنُ فِي قَبْلِ ،

ويحمي في دُبُرٍ ^(٣) . وروى ابن قتيبة ، قال ، قال الزبيري : ما استحيا شجاعُ

أنْ يفرَّ من عبدالله بن خازم السلمي وقطري بن الفجاءة ^(٤) . وحدث رجل من

العرب ، قال : انهزمنا من قطري وأصحابه فأدركني رجل على فرس فسمعتُ

حسّاً منكراً خلفي، فالتفتُ فإذا أنا بقطري فينست من الحياة، فلما عرفني قال:

أشدُّ عِنانها وأوجعُ خاصرتها قطع الله يديك، قال : ففعلت فنجوت منه ^(٥) .

وتتجلى شجاعة قطري وفروسيته في بعض أشعاره التي تعد لهيباً من البطولة،

وجأش النفس ، وبأس الإقدام ، على أنه كثير ما كان يتفادى اللقاء والمواجهة

(١) الكامل ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٢) العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(٣) الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٥١ ،

(٤) عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ؛ والعقد الفريد ، ج ١ ، ص ٨٣ ؛ وفيه : شجاع قط أن ...

(٥) عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

المباشرة مع أبطال أمثال المهلب بن أبي صفرة ، أو عمر بن عبيد الله بن معمر ،
أو حتى سفيان بن الأبرد ، فهو شجاع داهية حذر . وفي إحدى هزائمه أمام
أحد هؤلاء يقول الشاعر ^(١) :

لما استباحوا ربَّ عبدٍ عرَّدتُ بأبي نعاماً أمُّ رآلٍ خيفُ

شاعريته : وهو أحد أشهر شعراء الحماسة والحرب والإقدام على مستوى
التاريخ العربي وليس مستوى زمنه فحسب ، ولا أظن كلاماً يعبر عن جودة
شعره مثل قصائده ، فهي خير ما يصف ويبرهن على فحولته . وشعره كثير
متفرق في كتب الأدب والتاريخ وسنأتي بعيون منه .
- يقول واصفاً شجاعته وإقدامه ^(٢) :

يا ربَّ ظلِّ عقابٍ قد وقَّيتُ بها	مُهرِي من الشمس والأبطال تجتلدُ
وربَّ يومٍ حمى أرعيتُ عقوته	خيلي اقتصاراً وأطرافُ القنا قصدُ
ويومٍ لهُوٍ لأهل الخفض ظلُّ به	لهُوي اصطلاء الوغى وناره تقدُ
مشهراً موقفي والحرب كاشفة	عنها القناعَ وبحرُ الموت يطردُ
وربَّ هاجرة تغلي مراجلها	مخرتها بمطايا غارة تخذُ
تجتأبُ أودية الأفزاع أمنة	كأنها أسدٌ تقتادها أسدُ
فإن أمتٍ حتفٌ أنفي لا أمتٌ كمداً	على الطعان وقصرُ العاجز الكمدُ
ولم أقلْ لم أساقِ الموتَ شاربهُ	في كأسه والمنابا شرعُ وردُ

(١) الأفعال ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(٢) أمالي القالي ، ج ١ ، ص ٢٦٥ . والبيت الأول والثاني والرابع في لباب الآداب ، ص ٢٢٥ ، وفيه :
واد حمى بدلاً من يوم حمى ، واقتصاراً بدلاً من : اقتصاراً ، ومشهر بدلاً من : مشهراً .

- وقال أيضاً ^(١) :

إلى كم تُعاديَنِي السُّيُوفُ ولا أرى مَضَارِبَهَا تُهْدِي إِلَيَّ حِمَامِيَا
أَقَارِعُ عَنْ الخُلُودِ ولا أرى بَقَاءً عَلَى حَالٍ لِمَنْ لَيْسَ بَاقِيَا
وَلَوْ قَرَّبَ المَوْتَ القِرَاعُ لَقَدْ أَنَى لَمَوْتِي أَنْ يَدُنُو لَطُولِ قِرَاعِيَا
أَغَادِي جِلَادَ المُعْلَمِينَ كَأَنَّنِي عَلَى العَسَلِ المَآذِي أَصْبَحْتُ غَادِيَا
وَأَدْعُو الكُفَاةَ لِلنُّزَالِ إِذَا القَنَا تَحَطَّمْ فِيمَا بَيْنَنَا مِنْ طَعَانِيَا
وَلَسْتُ أَرَى نَفْسًا تَمُوتُ إِذَا دَنَتْ مِنَ المَوْتِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ دَاعِيَا
إِذَا اسْتَلَبَ الخَوْفُ الرِّجَالَ قُلُوبَهُمْ حَبَسْنَا عَلَى المَوْتِ النُّفُوسَ الغَوَالِيَا
حِذَارَ الأحَادِيثِ الَّتِي لَوْ غِبَّهَا عَقَدْنَ بِأَعْنَاقِ الرِّجَالِ المَخَازِيَا
- وقوله ^(٢) :

يَا نَفْسِ لَا يُلْهِينَنَّكَ الأَمَلُ فَرُبَّمَا أَكْذَبَ المُنَى الأَجَلُ
- وقوله ^(٣) :

أَلَا أَيُّهَا البَاغِي البرَازَ تَقَرَّبْنِ أَسَاقِكَ بِالمَوْتِ الدُّعَافَ المُقَشَّبَا
فَمَا فِي تَسَاقِي المَوْتِ فِي الحَرْبِ سُبَّةٌ عَلَى شَارِبِيهِ فَاسْقِنِي مِنْهُ وَاشْرَبَا
- وقوله ^(٤) :

لَا يَرْكُنَنَّ أَحَدٌ إِلَى الإِحْجَامِ يَوْمَ الوَعَى مُتَخَوِّفًا لِحِمَامِ

(١) لباب الآداب ، ص ٢٢٥ .

(٢) حماسة البحثري ، ص ٢١٧ .

(٣) حماسة أبي تمام ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

(٤) حماسة أبي تمام ، ج ١ ، ص ٣٥ ، وأمالى القالي ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ويريد بأو عنان : وعنان .

فلقد أراني للرماح دَرِيئَةً من عَن يميني مرةً وأمامي
حتى خَضَبْتُ بما تحدرَّ مِن دَمِي أكنافَ سَرَجِي أو عِنانَ لَجَامِي
ثُمَّ انصَرَفْتُ وقد أَصَبْتُ ولم أَصِبْ جَدَعَ البصيرةِ قَارِحَ الإقدامِ
ولقطري بن الفجاءة القصيدة العينية السائرة التي تعد واحدة من قصائد
حمل النفس على المكروه ، القليلة في الشعر العربي . وهي حربية نادرة مؤثرة
وصفها ابن خلكان بأنها تشجع أجبن خلق الله ^(١) . يقول فيها ^(٢) :

أقولُ لها وقد طارتُ شِعاعاً مِنَ الأبطالِ وَيَحَكِ لَنُ تِراعي
فإنَّكَ لو سألتِ بقاءَ يومٍ على الأجلِ الذي لكِ لَنُ تُطاعي
فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً فما نَيْلُ الخلودِ بِمُسْتَطاعِ
ولا ثوبُ البقاءِ بثوبِ عِزٍّ فيطوى عَن أخي الخنَعِ اليَراعِ
سَبيلُ الموتِ غايةُ كُلِّ حيٍّ فداعِيهِ لأهلِ الأرضِ داعي
ومن لا يُعْتَبِطُ يَسَامُ وَيَهْرَمُ وتُسَلِّمُهُ المُنُونُ إلى انْقِطاعِ
وما لِلْمِرءِ خَيْرُ في حياةٍ إذا ما عُدَّ مِنَ سَقَطِ المَتاعِ
وله ^(٣) :

ورُبَّ مَسالِيطٍ نِشاطٍ إلى الوغى سِراعٍ إلى الداعي كِرامِ المقادِمِ
أَحْضَتُهُمُ بحرَ الحِمَامِ وخُضَّتُهُ رجاءَ الثوابِ لا رجاءِ المِغانِمِ
فأُبْنَا وقد حُزنا الثوابِ ولم نُردْ سِوى ذاكِ غُنىً وأبتِناءِ المِكارِمِ

(١) الخوارج في العصر الأموي ، ص ٢٦٢ .

(٢) حماسة أبي تمام ، ج ١ ، ص ٢٤ ؛ ولباب الآداب ، ص ٢٢٤ .

(٣) الأشباه والنظائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

وهناك القصيدة الميمية السائرة أيضاً ، نسبت لقطري بن الفجاءة أو

لغيره وهي كما وردت في الأغاني ^(١) :

لعمركُ إنني في الحياة لزاهدُ	وفي العيش ما لم ألقَ أمَّ حكيم
من الخفّرات البيض لم أر مثلاً	شفاءً لذي بثٍّ ولا لسقيم
لعمركُ إنني يومَ أطمُ وجهها	على نائبات الدهر غير حليم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرتُ	طعان فتى في الحرب غير لثيم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	والأفها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم	وعُجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أولُ جدّها	وولتُ شيوخ الأزد فهي تَعُوم
فلم أر يوماً كان أكثر مُقَعَصاً	يَمُجُّ دماً من فائظٍ وكلّيم
وضاربةٌ خِداً كريماً على فتى	أغرَّ نجيب الأمّهات كريم
أصيبَ بدولابٍ ولم تكُ موطناً	له أرضُ دولابٍ وديرٌ حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلُنا	تُبِيحُ من الكُفار كلَّ حريم
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسهم	بجناتٍ عَدَنٍ عنده ونعيم

وقال أبو الفرج الأصفهاني إنها لقطري بن الفجاءة فيما ذكر المبرد ، أو

لصالح بن عبدالله العبشمي فيما ذكر المدائني ، أو لعمرو بن القنا كما ذكر

خالد بن خدّاش ، أو هي لحبيب بن سهم التميمي كما ذكر وهب بن جرير .

قلت : دولاب قرية قرب الأهواز ، كانت فيها وقعة بين الأزارقة والجماعة

مشهورة . وأراد الشاعر بعلماء بكر كما ورد في البيت الخامس : على الماء .

(١) الأغاني ، ص ٢٢٢٨ ؛ وكذلك في الكامل ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

وهو كبرٌ سليم بينما هي بصيغة التصغير، وذلك لضرورة الشعر . ويلاحظ الإقواء في البيت السابع . وأقعصه: طعنه. والفائظ: الميت. والكليم: الجريح. وأورد أبو الفرج ثلاثة أبيات من المئة المختارة ، وهي من الوزن والقافية نفسها، وهي لبعض الشراة أيضاً كما ذكر، ولكنه لم يجزم على قائلها إذ اختلف الرواة فيه فمنهم من يرويها لصالح بن عبدالله العشمي ، ومنهم من يرويها لقطري ، ومنهم من يرويها لعبدة بن هلال الشكري . وكأنَّ أبا الفرج يفرق بينها وبين القصيدة الدارجة ؛ والأبيات هي ^(١) :

إذا قلتُ تَسْلُو النفسُ أو تنتهي المنى أبى القلبُ إلّا حبّاً أمَّ حكيم
مُنْعَمٌ صفراءُ حُلُو دلالُها أبيتُ بها بعد الهدوء أهيم
قَطُوفُ الخطأ مَحْطُوطَةُ المِتن زانها مع الحُسن حُلُقٌ في الجمال عَميم
قلتُ : وشبهة الخلط بين القصيدتين واردة، فلا يظهر أنهما لشاعر واحد فالأولى حربية يتمنى الشاعر لو شاهده أم حكيم - وهي زوجته قطعاً - وهو يوجد بنفسه في معمة يوم دولا ب ، وهو يندم على ما كان من لطمه وجهها حين ضنك الدهر وغياب الحلم . بينما أبيات القصيدة الثانية غزلية وجدية تقترب من الإغراق في التشبيب وهذا ، غالباً ، شعر متمعن .

قلتُ : ويلاحظ الإقواء في البيت الثاني من القصيدة الثانية .

قلتُ : وورد البيت: لعمرك إني في الحياة ...، في جمهرة أنساب العرب لأبي سهم الخارجي ، وأظنه حبيب بن سهم ، وقال ابن حزم : وقد يروى أيضاً لقطري ^(٢) .

(١) الأغاني ، ص ٢٢٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٢٣ .

أما أم حكيم هذه فروى أبو الفرج الأصفهاني أنها امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بدينهم تمسكاً، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك ^(١). وذكرها ابن حزم بأنها من بني امرئ القيس بن مالك بن الأوس بن حارثة، الأنصار، وأنها أم حكيم بنت عمرو بن قيس بن عامر بن جعدة بن ثعلبة بن سالم بن مالك بن واقف. وأنها هي المعنية بقول الشاعر: لعمرك إني في الحياة لزاهد...، وقيل إن هذا البيت لقطري بن الفجاءة ^(٢).

قلت: قد يكون ذلك صحيحاً عند ابن حزم، ولكنه من غير المرجح أنها لم تك زوجة الشاعر نفسه في إشارة أبي الفرج.

خطابته: تنم خطب ورسائل قطري بن الفجاءة عن فحولة بلاغية وجمل جياشة رنانة خالية من حوشي الكلام وتكلفه، وهي مع هذا تدل على إيمان عميق زاهد بدنيا ومحذر من عاقبة أخروية، وهي أيضاً على نقيض تام مما أشيع وعرف عنه من استحلال دماء المسلمين وسبي ذراريهم وتقتيل أطفالهم - والله أعلم بحاله - . وقد أشار الجاحظ إلى أنه من خطباء الخوارج وأن له خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ ^(٣). وسنأتي بنصوص لبعض خطبه ورسائله ومنها الخطبة الطويلة المشهورة التي ذكرت في كتب الأدب والتاريخ.

- خطبة له ذكر فيها الذين قالوا: مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً فَقَالَ: حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا، وَأَنْزِلُوا فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا، وجعلوا لهم من الضريح

(١) الأغاني، ص ٢٢٣.

(٢) جمهرة أنساب، ص ٣٤٤.

(٣) البيان ج ١، ص ١٨٥.

أجباناً ، ومن التراب أكفاناً ، ومن الرفات جيراناً ، فهم جيرة لا يُجيبون داعياً ، ولا يَمنعون ضيماً ، إن أخصبوا لم يفرحوا ، أو أقحطوا لم يَقْتطوا ، جميعٌ أوحادٌ ، وجيرةٌ أبعادٌ ، لا يزورون ولا يُزارون . فاحذروا ما حذركم الله ، وانتفعوا بمواعظه واعتصموا بحبله ^(١) .

- قال الجاحظ : كتب الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة : «سلام عليك. أما بعد ؛ فإنك مرقتَ من الدين مروق السهم من الرمية . قد علمت حيث تَجَرَّمْتَ ذلك أنك عاص لله ولولاة أمره ، غير أنك أعرابي جلف أُمي تستطعم الكسرة وتشتفي بالتمر والأُمور عليك حسرة . خرجتَ لتناول شبة فلدق بك طعام صُلوا بمثل ما صُليت به من العيش ، يهزون الرماح ، ويستنشئون الرياح ، على خوف وجهد من أمورهم . وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته. ثم أهلكهم الله بنزحتين ؛ والسلام» .

فأجابه قطري بن الفجاءة : «من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف . سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقمه . فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأطلع به أهل السفالة ، وهدى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه . كتبت إليّ تذكر أنني أعرابي جلف أُمي أستطعم الكسرة واشتفي بالتمر . ولعمري يا ابن أم الحجاج إنك لميت في جبلتك ، مُطلخِمٌ (متكبر) في طريقتك ، واهٍ في وثيقتك ، لا تعرف الله ، ولا تجزع في خطيتك . يئستَ واستيأستَ من ربك : فالشيطان قرينك لا تجاذبه وثاقك، ولا تنازعه خناقك. فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي

(١) عيون الأخبار ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

صفحتك، وأوضح لي طلعتك - فوالذي نفس قطري بيده - لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال مع أنني أرجو أن يدحض الله حجتك ، وأن يمتعني مهجَتك» (١) .

- قال الجاحظ : صعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «أما بعد فإنني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة ، حُفَّتْ بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال وتزينت بالغرور ، لا تدوم خبرتها ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضاربة خوكة غدارة ، وحائلة زائلة ونافذة بائدة ، أكالة غوالة بذلة نقالة ، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ . مع أن امرءاً لم يكن منها في حيرة إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بظناً إلا منحتة من ضرائها ظهراً ، ولم تطلّه غيثة رخاء إلا أهطلت عليه مُزْنَةٌ بلاء . وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تسمي له خاذلةً متنكرة ، وإنْ جانبُ منها اعذوذب واحلولى أمر عليه جانب وأوبى ، وإن أتت امرءاً من غضارتها ورفاقتها نعماً أرهقته من نوائبها تبعاً ، ولم يُمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فإن ماعليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها مما يُوبقه ويطيل

(١) البيان ، ج٢ ، ص ١٦٢ ؛ وهي كذلك في الكامل ، ج١ ، ص ٢٢٢ ؛ وفيها بعض الاختلاف اليسير في الألفاظ .

حزنه ويبكي عينيه . كم واثق بها قد أفجعتة، وذو طمأنينة إليها قد
 صرعتة، وذو اختيال فيها قد خدعتة، وكم من ذي أبهة بها قد صيرته حقيراً،
 وذو نخوة قد ردتة ذليلاً، وكم من ذي تاج قد كبته لليدين والقم ؛ سلطانها
 دول، وغيثها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها
 رمام، وقطافها سلع ؛ حياها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها
 بعرض اهتضام، مليكها مسلوب وعزيزها مغلوب وسليمها منكوب وجامعها
 محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وهول المطلاع والوقوف بين يدي
 الحكم العدل، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.
 ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً وأوضح منكم آثاراً وأعد
 عديداً وأكثف جنوداً وأعد عنوداً، تعبدوا للعالم أي تعبد وآثروها أي إشار
 وظعنوا عنها بالكره والصغار ، فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفساً
 بفدية أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب ؛ بل قد أرهقتهم بالقوادح
 وضععتهم بالنوائب ، وعقرتهم بالمصائب ، وقد رأيتم تنكرها لمن زان لها
 وأخذ إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المسند ، هل زودتهم إلا
 الشقاء وأحلتهم إلا الضنك أو نورت لهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة،
 أفهذه تؤثرن أم على هذه تحرصون أم عليها تطمئنون. يقول الله ﴿من كان
 يُريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفَ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ،
 أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وَحِبَطُ ما صنعوا فيها وباطلُ ما
 كانوا يعملون﴾ . فبئست الدار لمن أقام فيها، فاعلموا وأنتم تعلمون أنكم
 تاركوها لابد، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللهو؛ وقد قال الله تعالى

﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾^(٤٢) .

والخطبة تلك مطولة في العقد الفريد أيضاً .

ما مضى هو بعض من أخبار قطري بن الفجاءة المازني ، الفارس الشجاع ،
والشاعر الخطيب الملهم وهو ما أعجبنى فيه ، بينما أتوقف عما ذكروا من
عقيدته ؛ فإن اجتهد فقد بالغ وغالى فمرق كما قالوا . والله أعلم بحاله .
ومهما يكن ؛ فإنه معدود بين فرسان العرب وشجعانها وشعرائها
وخطبائها ، وكان معدوداً في حيز تاريخي مهم من الزمن .

مصادر البحث

- الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، دار الشعب ، مصر
١٣٨٩هـ .
- البيان والتبيين ، للجاحظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، مصورة عن الطبعة المصرية .
- تاج العروس ، للزبيدي .
- جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، مصر ،
١٣٨٢هـ .
- الحماسة ، للبحتري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، مصورة عن طبعة لويس شيخو .
- الخوارج في العصر الأموي ، نايف معروف ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٣٩٧هـ .
- ديوان الحماسة لأبي تمام ، شرح التبريزي ، مكتبة النوري ، دمشق ، مصورة عن الطبعة
المصرية .

(٤٢) البيان ، ج ٢ ، ص ٦٣ ؛ وكذلك في العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ١٩٧ .

- العقد الفريد ، لابن عبدبريه ، تحقيق : سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ١٣٧٢هـ .
- عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، مصورة عن الطبعة المصرية .
- الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مصورة عن الطبعة المصرية .
- كتاب الأشباه والنظائر ، للخالدين ، تحقيق : السيد محمد يوسف ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- كتاب الأفعال ، للمعافري السرقسطي ، تحقيق : حسين محمد محمد شرف ، مجمع اللغة العربية ، مصر ١٣٩٥هـ .
- كتاب الأمالي ، للقالبي ، دار الحديث للطباعة ، بيروت ١٤٠٤هـ ، مصورة عن الطبعة المصرية .
- كتاب المحبر ، لابن حبيب ، تحقيق : ايلزة ليختن شتير ، المكتب التجاري ، بيروت .
- لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الكتب السلفية ، مصر ١٤٠٧هـ .
- لسان العرب ، لابن منظور .
- المعارف ، لابن قتيبة ، تحقيق : ثروت عكاشة ، دارالمعارف ، ط ٢ .
- المؤلف والمختلف ، للآمدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، مصورة عن طبعة كرنكو .